إسحاق جالو: رائد المدرسة العربية الإسلامية في مدينة سيكاسو

الدكتور أبوبكر دمبيلي

مختبر البحث حول العالم العربي والإسلامي؛ معهد زايد للعلوم الاقتصادية والقانونية بماكو – مالي

aboubacardembele67@gmail.com *Tél:00223* 76451344

الدكتور عثمان حمّدون

مختبر البحث حول العالم العربي والإسلامي، جامعة يمبو ولوغيم بماكو – مالي

os.cisse70@gmail.com Tel 70518625

مستخلص:

يُعدّ هذا المقال شهادة ونظرة نابهة لحياة شخص ناضل من أجل تأسيس نظام المدرسة العربية الإسلامية في مدينة سيكاسو التي عارض المستعمرون افتتاحها. وقد ركّزت الدراسة على تَجارِب طفولته ورشده. ترجع دوافع اختيار هذا الموضوع إلى إعجاب الباحث بشخصيّة إسحاق جالو النادرة. ذلك أنه كان متواضعا ومعروفا بروح إبداعية تفوق الخيال. كما سنتطرّق في هذه السطور إلى شخصيات أخرى لمدينة سيكاسو، مثل: شخصية القائد (Méker) المستعمر الفرنسي، الذي تدخّل في أشياء كثيرة متعلّقة بمجال التعليم في سيكاسو. والشيخ سيدي الخليل سيسي –من أصول تمبكتيّة– الذي يعتبر أيضا رائدَ نظام المجلس القرآني المتطوّر في سيكاسو. ومنه تمّ انطلاق أول مدرسة عربية، ومدرسة فرنسية عربية. وأخيراً لابدّ من الإشارة إلى تأثير القيم الإسلامية التي غرسها أهل السنة والجماعة وعلى رأسهم الأستاذ إسحاق جالو المشهور. وقيامه بهذا العمل الإنساني معبّرٌ عن تاريخ تأسيس المدرسة العربية الإسلامية في مدينة كِينِيدُوغُو (Kènèdougou) أي سيكاسو، فهو من بين رواد هذا النظام. لقد قدّم مجتمع سيكاسو لهذا التراث أهمية كبيرة ولا يزال مستمرًا إلى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية :إسحاق جالو- المدرسة العربية الإسلامية- سيكاسو - المجلس القرآني- الاستعمار الفرنسي.

Résumé : Issack Diallo : pionnier de l'école arabo-islamique dans la ville de Sikasso

Cet article offre un témoignage et un éclairage précieux sur la vie d'un homme qui a lutté pour établir un système scolaire arabo-islamique à Sikasso. Les autorités coloniales s'opposèrent à l'ouverture de cette école. C'est pourquoi le chercheur s'est concentré sur sa biographie. Cette étude trouve son origine dans le portrait du maître Chiaka Diallo, dont le chercheur admirait sa personnalité hors du commun à Sikasso, un homme caractérisé par une humilité inébranlable et un esprit créatif extraordinaire. Au fil des pages, on découvre des personnages et des événements marquants de l'histoire de Sikasso, comme le commandant colonial français (Méker), qui intervint fortement dans le domaine de l'éducation. On y trouve également la figure du cheikh Sidi Khalil Cissé de Tombouctou, considéré comme le premier à avoir instauré à Sikasso le système avancé des écoles coraniques Chiaka est à l'origine de la première école

arabe et d'une école franco-arabe. Enfin, il est essentiel de reconnaître l'influence des valeurs éducatives et religieuses établies par les Sunnites, et notamment par l'éminent professeur Chiaka Diallo. Son œuvre humanitaire est révélatrice de l'histoire de la fondation de médersa à Kènèdougou (Sikasso), dont il fut l'un des pionniers. La communauté musulmane de Sikasso a accordé une grande importance à cet héritage, et cet attachement perdure encore aujourd'hui. Nous avons adopté une approche descriptive et exploratoire. Nos questions de recherche sont entre autre les suivantes : comment l'étude de l'école arabe moderne a-t-elle débuté à Sikasso ? Et par qui ?
Mots-clés : Ishaq Diallo ; école arabo-islamique ; Sikasso ; conseil coranique ; colonisation française.
Abstract: Issack Diallo: Pioneer of the Arabo-Islamic School in the City of Sikasso
This article provides a valuable testimony and insight into the life of a man who struggled to establish an Arabo-Islamic educational system in Sikasso. The colonial authorities opposed the opening of this school, which is why the researcher focused on his biography. This study originates from the portrait of the teacher Chiaka Diallo, whose extraordinary personality deeply impressed the researcher in Sikasso—a man marked by unwavering humility and remarkable creativity.
Throughout the pages, readers encounter key figures and significant events in the history of Sikasso, such as the French colonial commander Méker, who played a major role in the field of education. The article also highlights the figure of Sheikh Sidi Khalil Cissé of Timbuktu, considered the first to introduce an advanced system of Qur'anic schools in Sikasso. Chiaka Diallo was behind the establishment of the first Arabic school as well as a Franco-Arab school. Finally, it is essential to recognize the influence of the educational and religious values established by the Sunnis, particularly through the eminent scholar Chiaka Diallo. His humanitarian work reflects the history of the foundation of madrasas in Kènèdougou (Sikasso), of which he was one of the pioneers. The Muslim community of Sikasso has attached great importance to this heritage, and this attachment continues to this day.
A descriptive and exploratory approach has been adopted in this study. Among the research questions addressed are: How did the study of modern Arabic schooling begin in Sikasso? And who initiated it?
Keywords: Ishaq Diallo; Arab-Islamic school; Sikasso; Quranic council; French colonialism.

مقدمة

يرتكز بحثنا على إظهار عنصر أساسي في تاريخ التعليم العربي الإسلامي في مالي عامة، وفي مدينة سيكاسو بصفة خاصة. وهذا العنصر يتضمن دراسة شخصية مهمة في تاريخ تأسيس المدرسة العربية الإسلامية في سيكاسو. يعود تاريخ هذا النظام في سيكاسو إلى فترة انتشار الإسلام فيها. وتوجد عدة آراء تؤكّد هذه المعلومة إذ يرى بعض الباحثين أن الإسلام انتشر في بداية مملكة كِينِيدُوغُو(Kénédougou)[1]، أواخر القرن التّاسع عشر، من خلال العلاقة والتعاطف بين عائلتي تراوري (Traoré) وسَانُغُو(Sanogo)[2]. بينما يرى الآخرون أن السياسات المتبعة من قِبل مملكة أحمد بن الحاج عمر تال في سيقو هي التي دفعت ملوك سيكاسو إلى اعتناق الإسلام. ولما وصلت عائلة سانوغو، المنحدرة من بلدة كونغ (Kong)' (كوت دي فوار)

[1] - اسم من أسماء سيكاسو

[2] - عاشت الأسرتان في مدينة كونخ بدولة كوت ديفوار قرب مدينة سيكاسو.

إلى سيكاسو، أثّرت في السكان بثروتها ومعرفتها بالقرآن الكريم. يقول المرحوم سليمان المُلْكُ تراوري[3]، الذي أجرينا معه مقابلة: "شهدت مدينة سيكاسو تعليمًا عربيًا إسلاميًا في أواخر عهد مملكة كينيدوغو، وفي بداية القرن العشرين. وأنه بدأت المدارس القرآنية في سيكاسو في أروقة المدينة. وقال يوسف عباس سانوغو[4]، خلال مقابلة معه، إن الجهات الفاعلة في التعليم العربي الإسلامي في المدينة هي في المقام الأول مجلس عائلة سانوغو ثمّ مجلس الفولانيين الذين جاءوا من وسط وشمال مالي. لما وصل الاستعماريون الفرنسيون إلى سيكاسو، راقبوا عن كثب أنشطة التعليم العربي الإسلامي. وأصدروا تقارير شيّقة عن التدريس والجهات الفاعلة في المدارس القرآنية في المدينة. يقول سليمان تراوري[5]، المعروف باسم "المعلم" صُولُو(Solo)، أن القائد الفرنسي مِيكِير (Commandant Méker) أجرى دراسة مقارنة حول عدد الطلاب بين المدارس القرآنية والفرنسية الاستعمارية عام 1949م (الأرشيف الوطني IG-93). وجد أنّ عدد التلاميذ في المجلس القرآني أكثر من عدد التلاميذ في المدرسة الفرنسية. وفي أوائل ثلاثينيات القرن العشرين، أنشأ الشيخ سيدي الخليل سيسي –وهو عالم ورجل دين نشيط– نظامًا دراسيًا متينًا. فكان هذا ضروريًا لملء الفراغ في المدينة، حيث كانت مدينة سيكاسو فقيرة إلى التعليم العربي الإسلامي الرصين، سواء في اللغة العربية أو في تفسير القرآن الكريم. أدّت هذه الشخصية البارزة في سيكاسو دورًا كبيرا في تنشئة تلاميذ القرآن الكريم على يد علماء الطريقتين القادرية والتيجانية. واعتمد هؤلاء العلماء منهجا قائما على تعلم قراءة القرآن وحفظه، ولم تكن دروس اللغة العربية ذات أهميّة بالغة لديهم، بل كانوا أكثر ميلًا إلى منهج دراسة القرآن المستورد من تمبكتو وجيني .

أما ما يخصّ وضع التعليم في المجالس القرآنية في مدينة سيكاسو فقد أشار إليه القائد المأمور الفرنسي المستعمر رولاند كولين (R Colin)[6] في كتابه قائلا: "اهتمّ الحاكم الاستعماري اهتمامًا بالغًا بالشؤون الإسلامية". وتابع حديثه قائلًا: "تُقدّم المجالس القرآنية في سيكاسو تعليمًا دينيًا لأكثر من أربعمائة طفل. وقد أغلقت الإدارة الاستعمارية أكبرها، وهي مدرسة إسحاق جالو (سِيَاكَا دِيَالُو)، في شهر ديسمبر عام 1953م. وكان إسحاق يُدرّس إضافة إلى القرآن الكريم مادّة الجغرافيا والحساب والتاريخ[7]. لقد رسّخت فلسفة نظام التعليم العربي الإسلامي في سيكاسو على يد بعض المعلمين والمهاجرين أو الوافدين. وكان التمثيل واضحًا ضمن إطارٍ يُسيطر على جميع الأعراق، رغم تنوّع القائمين عليه وتنوّع أصولهم الثقافية والعلمية، مما سمح بانطلاقة هذا النظام. ويرجع الفضل العظيم في المحاولات الأولى لتأسيس المدرسة النّظاميّة في الخمسينات للشيخ إسحاق جالو. ومن هنا سنسعى إلى توضيح الموضوع والمشكلة المتعلقة به،

---

[3] - من أوائل التلاميذ الذين درسوا في الكتّاب والمدرسة، توفي عام 2022م. أُجريت المقابلة معه في 27 يونيو 2020م

[4] - من أوائل تلاميذ المدرسة الفرنسية العربية. أُجريت المقابلة معه في مكتبي في معهد زايد بمدينة بماكو 19 أغسطس 2021م

[5]- من أوائل المعلمين في المدرسة العربية في سيكاسو، تمّت المقابلة معه يوم الاثنين 21 يونيو 2021م

[6] **COLIN Roland**, 2004, *Kènèdougou au crépuscule de l'Afrique coloniale, mémoire des années cinquante suivi du Mémorial de Kélétigui Berté »,* Présence Africaine, Paris, pages 270

[7] **COLIN Roland** نفس المرجع والصفحة

انطلاقا من طرح الأسئلة الآتية: **كيف بدأت الدراسة النظاميّة بالمدرسة العربية الإسلامية في مدينة سيكاسو؟ وعلى يد من؟ ومن هو إسحاق جالو؟** ويتكون البحث من مقدمة ومحورين.

المنهجية

استعملنا في بحثنا هذا المنهج الوصفي الاستكشافي لمعالجة مشكلة الموضوع، والتي تتمثّل في قلة الدراسات حول بداية التعليم العربي الإسلامي في مدينة سيكاسو لفترة ما بين الخمسينيات إلى السبعينيات. واعتمدنا مؤسسة معيّنة ومؤسِّسها كنموذج.

وفي هذا الإطار استعملنا بوضوح وسائل علميّة بهدف إجراء تحليل وصفي لمعالجة أوجه القصور. ونظرا لتعقيد الوضع والوصول إلى الحقائق الدقيقة، فقد اخترنا عينة من أفراد عايشوا المؤسِّس وشاهدوا الوضع، وقد أجرينا مقابلات مكّنتْنا من استخلاص بعض الدوافع والقيم التي اعتمدناها كمصادر ومراجع.

1. المحور الأول:

1.1- شخصية الأستاذ إسحاق (شِيَاكَا) جالو: ولادته وشبابه

الأستاذ إسحاق جالو من مواليد 15 أبريل 1925م في مدينة سِيكَاسُو من عائلة فولانية عريقة. كان جدّه سامْبَا(Samba) جالو فارسًا محاربًا في مملكة كِينِيدُوغُو، وأما والده سِيكُو(Sékou) فكان تاجراً ثرياً مقيما في مدينة يَامُوسُوكْرُو (Yamoussoukro) في كوت ديفوار. الأستاذ إسحاق جالو هو النّجل الأكبر من نسل والده الأربعة عشر 14. تربّى معظم إخوته وأخواته في مدينة يَامُوسُوكْرُو، حيث قلّد بعضهم مناصب حكومية، بينما مارس الآخرون الأنشطة والأعمال التّجارية. تزوّج الأستاذ إسحاق من امرأتين، الأولى ميمونة بَاهْ إبنة تيجان بَاهْ – مواطن مشهور من مدينة سيكاسو – والثّانية أمُّ كُولِيبَالِي إبنة محمد كُولِيبَالِي، المقيم في دَاوُوكُورُو (Daoukoro) بكوت دي فوار. كان الأستاذ إسحاق متوسطَ القامة، أشقر اللون ذا وجه فولاني من ماسينا (Macina)، نظرته ثابتة، وكان جذّابًا للغاية في ارتداء ملابسه، كما كان سريعَ اللفظ في مكالمته، ولكنَّ كتاباته كانت مفهومة للغاية.

إنّ الأستاذ إسحاق معروف حقّا بالعلم والثقافة والمبادئ الصارمة في التربية الإسلامية لاسيما مع أبنائه. إنّه ربّى وأدّب أولاده ذكورا وإناثا بالأسلوب نفسه والصرامة نفسها. لقد كان متقدّمًا ومتفوّقا في سلوكه وتصرفاته مقارنة بمعظم أهالي مدينة سيكاسو.

1.2- حياته العلمية

– **دراسته**

بقي الأستاذ إسحاق في سيكاسو – بصفته الابن الأكبر – بجوار جدّه سَامْبَا، الّذي أدخله المدرسة القرآنية عند الشّيخ سيدي الخليل. وكان من بين أوائل تلاميذ هذا الشّيخ مع أصدقائه كـ سَنُوسِي تَرَاوِرِي، وإبراهيم دَمْبِيلي، وآدم كُونِي، وحمزة بِيرْتِي، وعمر بِيرْتِي، وقاسم جارا وغيرهم.

يُعتبر الشيخ سيدي خليل التّمبكتي –معلمُ إسحاق جالو– من أصول مدينة تمبكتو، قدِمَ مدينة سيكاسو في عشرينيات القرن العشرين، حيث بدأ بتعليم التّلاميذ في دهليزٍ بحي كِيلِيتِغِيلاَ (Kèlètiguila) كَابُويْلاَ 1(Kaboila 1) . وبسبب معاملته الحسنة في مجال التربية تمكَّنَ من إضافة دهليز ثانٍ، حيث تمّ تقسيم التلاميذ على مجموعتين في دهليزين منفصلين، يُشرف على المجموعة الأولى ثلاثةٌ من التلاميذ الكبار، بينما يُشرف على الثانية إسحاق جالو، والشيخ سيدي يُراقب الجميع. يُعتبر الأستاذ إسحاق جالو من أفضل تلاميذ الشيخ سيدي الخليل سيسي؛ إذْ كان يُتقن لغتين: العربية والفرنسية؛ ولذلك تمّ استدعاؤه –بعد رحيل الشيخ سيدي خليل إلى تمبكتو– من قِبل بعض شيوخ مدينة سيكاسو لتولّي تعليم أبنائهم.

1.3 مجلسه القرآني وتأسيس المدرسة

لمّا طلب الشيوخُ من الأستاذِ إسحاق المواصلة في تولّي تعليم الأطفال بعد رحيل الشيخ سيدي خليل، وافق على ذلك، وكان في زمن لم يكن بعض سكان سيكاسو يتديّن بالإسلام، ولا يعبدون الله الخالق بإخلاص، وقد كانوا مؤمنين بوجود حياةٍ أخرى وقدرة تخاطر، وتأثير أرواح الموتى، والكائنات المخفيّة على شؤون الأحياء. كما لم يكن يعرف أطفال المسلمين شيئا من واجبات ومستحبات ومحرّمات الإسلام. لما وافق إسحاق على طلب السكان، قام جدُّه سامبا بتحويل إحدى غرف منزله إلى مجلس قرآني.

ومن بين أوائل تلاميذه أبناء الشيوخ الذين طلبوا منه أن يستمرّ على خطى معلّمه. وأسهم الشيوخ في تجهيز الفصل الدراسي، كما حصل على مساعدات مالية من أصدقائه. كان التلاميذ في بداية الدراسة يجلسون على الحصائر، على سطح الأرض، ماسكين بالألواح في أيديهم. وكان أسلوبُ التدريس مبنيًّا على تعليم الحروف الهجائية والأبجدية العربية، باستخدام رموز النّطق، ورموز التقطيع، على نحو: أ (ألف) وب (باء)، وعلامات التنوين بالفتحة والكسرة والضمة، بالإضافة إلى حروف العلة الممدودة (ا و ي).

في عام 1948م قرّر إسحاق افتتاح مدرسة، حيث قام بتغيير نمط التدريس في مجلسه القرآني، مستخدما اللوازم المدرسية، مثل السبورة، والمقاعد، والدفاتر، وما إلى ذلك، وبناءً على هذا التغيير أمَرَ القائد الفرنسي بتوقيف التعليم في مدرسته، وساعده في ذلك بعض أهالي مدينة سيكاسو. وقامت الإدارة الاستعمارية بتوثيق التغييرات التي تمّ إجراؤُها في مدرسة إسحاق بعناية، حيث علّق الإداري المستعمر الفرنسي **رُولاَنْد كُولِنْ** (Roland Colin) في كتابه قائلا: (المجالس القرآنية (في سيكاسو) تُوفِّر التعليم الديني لأكثر من400 أربعمائة تلميذ. وأهمّ هذه المجالس مجلس إسحاق جالو الذي تمَّ إغلاقه في ديسمبر 1953م)، مضيفا أنّ إسحاق كان يدرّس شيئا آخر غير القرآن. لم يتخلّ إسحاق عن طموحه، بل أدخل في مجلسه أساليب تدريس أخرى ترتكز على استيعاب الحروف الهجائية المصوّرة، وشرح معاني الصّور باللغة المحلية بَمَنَكَنْ، مثال: (أ أَرْنَبٌ) الأرنب، (بَ بَطَّةٌ) البطّة. وفيما يخص تعليم القرآن الكريم، تمكّن التلاميذ من كتابة وقراءة وحفظ ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم، كما كان التلاميذ المتقدّمون يتعلّمون قراءةَ النّصوص العربية من كتاب القراءة العربية (كتاب من جمهورية مصر العربية) ويدرسون كذلك كتب دلائل الخيرات،

والأجرومية من النحو العربي، والأخضري في فقه المذهب المالكي. في عام 1953م، تفوَّق مجلسُ إسحاق جالو على المجالس القرآنية الأخرى بسبب استخدام أدوات التدريس الحديثة مثل السبورة، وريشة الحبر، والنشافة، والدفتر، والقلم، وغيرها، كما أدرج موادَّ الجغرافيا والتاريخ في برنامجه التعليمي. وفي العام نفسه، طلب إسحاق رخصة فتح مدرسة من الإدارة الاستعمارية، التي رضيت بشرط عدم تطبيقه برنامج الجغرافيا والتاريخ في مدرسة دينية (وفي دولة لائكية أي فرنسا). وعلّق الإداري المستعمر الفرنسي **رُولاَنْد كُولِنْ** في كتابه يقول: "....أتذكّر أنّني التقيتُ في عدة مناسبات بهذا المرابط الشابّ المتعلم ذي الوجه النّاعم والجذّاب، لكنّه متردّد في إبداء أفكاره الشخصية، واتّضح لي اهتمامه البالغ في الحفاظ على تعاليمه الدينية قبل كل شيء، وعندما قدم السيد هَامْبَاتِي بَاهْ (Ahmadou Hampaté Ba) والسيد عبد الوهاب دُوكُورِي (Abdoul Wahab Doucouré) إلى مدينة سيكاسو عام 1954م ، رائدا الإصلاح المعاكس –مع الشيخ إسحاق– لم يجدا صعوبةً في الانضمام إلى صفوفه، ممّا نتج عن الرخصة الرسمية التي حصل عليها الآن"[8].

وتَنصبّ في قالب هذا الإطار دراسةٌ سابقة – حول مراقبة حياة تلاميذ المجالس والمعلمين في فترة الاستعمار – تبدو فيها علاقة المشابهة بين الشخصيتين (الأستاذ إسحاق والشيخ عبد الرحمن) يقول فيها الدكتور علي يعقوب عن الشيخ عبد الرحمن الإفريقي، المشهور في بلاد الحجاز والمجهول في موطنه الأصلي – جمهورية مالي –: "... ولقد كان من حكمة الله أن وهب لهذا الفتى حظا غير قليل من الذكاء استرعى انتباه الفرنسي المسؤول عن مقاطعته –مقاطعة غاو– GAO وكان ذلك يوم مرّ هذا بقريته (فَافَا) وأقبل على كتّابها الأهلي الوحيد يتفقّد تلاميذه، ويراقب ما بأيديهم من الكراريس الخشبية، عسى أن يكون فيها ما ليس في مصلحة الاستعمار، وجعل يوجّه إلى الصغار بعض الأسئلة بلغتهم السونغوية، فتأتيه الأجوبة معبّرة عن مستوياتهم المختلفة، حتى جاء دور عبد الرحمن، فإذا أجوبته فوق مستوى غلام في الثانية عشرة.. مما أثار إعجاب المسؤول وكان هذا سببا في نقل عبد الرحمن إلى المدارس العصرية الفرنسية في مدينة غاو، حيث واصل دراسته فيها بتفوّق..."[9]

وبعد الاستقلال، واصل الأستاذ جالو أسلوب تدريسه مطبِّقا نظامي المجلس القرآني التقليدي والمدرسة العربية الإسلامية الحديثة، وفتح فصلًا ثانيًا، وقام بتحسين وضع الفصلين باستخدام الطاولات والسبورات. وكان أداء صلاة العصر واجبا في مدرسته. في عام 1966م، شكَّل المجتمع الإسلامي في مدينة سيكاسو لجنةً لبناء مدرسة بمعنى الكلمة، وكانت برِئاسة إسحاق جالو، الذي وجّه نداءً إلى جميع المسلمين داخل سيكاسو وفي المهجر للمساهمة لبناء ثلاثة (3) فصول، وللأسف الشديد غيَّرت الحكومة طابع هذا المبنى ومنحته صفة مدرسة فرنسية عربية. وقد أثرّت هذه الفعلة التي قامت بها الحكومة في مالي نحو المجتمع الإسلامي في سيكاسو، فقاموا بمساعٍ جديدة، ممّا سمح بافتتاح مدرسة تُلبّي التّطلعات، فأسّسوا

[8] .Roland Colin المرجع السابق والصفحة نفسها

[9]- د. علي يعقوب، جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية (غرب إفريقيا نموذجا)، مجلة قراءات إسلامية النيجر العدد الثالث 1429هـ 2008م ص: 21

مدرسة إسلامية جديدة باسم **مدرسة التربية الإسلامية**، وأصبح الأستاذ إسحاق جالو أوَّل مدير لها من عام 1966م حتى وفاته عام 1989م. وبعد تعيينه مديرًا للمدرسة، كان معه مجموعة من التلاميذ في منزله.

وأتذكّر أنني التحقت بهذه المدرسة القرآنية، حيث إنّه: ذات يوم، في إحدى الصباحيات الجميلة، أركبني والدي خلف دراجته النارية، دون أن يشعرني مسبقا، وتوجّهنا إلى منزل معلم القرآن، وكان صديقًا لوالدي منذ الطفولة. وما أن وصلنا عتبة منزله حتّى رأيت مجموعة كبيرة من الأطفال، يجلس بعضهم على سطح الأرض حاملين ألواحاً في أيديهم ويحفر بعضهم حفرا صغيرة من هنا وهناك مملوءة بالماء لتنظيف ألواحهم منتظرين تلقي دروسهم القادمة. ولم تستغرق فترة استقبالنا الحار سوى وقت قليل حتى تمّ انضمامي إلى المجموعة، وواصل والدي طريقه إلى دكانه، تاركا إياي بين يدي صديقه (المعلم)، وتم قبولي ضمن مجموعة الأطفال الصغار الذين استفادوا من لوح وريشة من القصب ومحبرة خشبية مملوءة بالحبر المستخرج من أعشاب الأرز المحروقة المعروفة ب **"كوتو"** في لغة بمبارا. وبعد عدّة أيّام فقط من الدرس، وجدني المعلم يوما في فناء المدرسة، وطلب منّي أن أقرأ الحروف الهجائية العربية، وقد نجحت فعلا في هذا الاختبار؛ فكنّا نكرّر كل يوم في الفصل قراءة بعض سور القرآن الكريم بالترتيب التّصاعدي من سورة النّاس إلى سورة الأعلى. وكان التلاميذُ من كلّ الدفعات مجتمعين معا في نفس الفصل، حيث يتكفّل المعلم الواحد بكلّهم أجمعين. وكان بعض كبار التلاميذ يقرؤون ويحفظون بعض الأحزاب من القرآن الكريم، في حين يدرس آخرون التفسير أو الحديث أو العلوم الشرعية (الشريعة والفقه والتوحيد). وأخيراً، إن التلاميذ الذين يعجزون عن حفظ دروسهم بشكل صحيح أو أداء واجباتهم المدرسية يتم تأنيبهم وعقوبتهم جسديا.

1.4 حياته الاجتماعية

كان الأستاذ إسحاق جالو رجلاً حكيماً، وكانت له فلسفته الخاصة في النظر في الأمور، وكان يتقن لغة ديولا (DIOULA)، والعربية، والفرنسية، وكان يحفظ القرآن الكريم، ويُتقن ترجمته بشكل كامل. ومن آثار جهوده تحويل المجلس القرآني التقليدي إلى مدرسة تعليمية إسلامية عربية علمية. كما شهدت مدينة سيكاسو تغييرا جذريا من حيث الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وحتى الجانب التعبدي الروحي. وتبعته في ذلك مدنٌ وقرى عديدة. ومن جهوده الثقافية أنّه كان يقوم – في منزله – بتفسير وترجمة القرآن الكريم مفصّلا خلال كلّ شهر رمضان المبارك، كما كان ينظّم احتفالاتٍ كلَّ عام بمناسبة المولد النبوي الشريف.

كان إسحاق جالو يتحلّى بقدَرٍ كبير من التّواضع، ممّا ساعده على الاندماج في مجتمع سيكاسو دون أن يخلّ كثيرا بالعادات والتقاليد التي يمارسها الأعيان، كما كان يتمتّع بمصداقيّة لدى السلطات الإدارية، والتّجار، والمزارعين، والمعلمين الناطقين بالفرنسية والعربية في مدينة سيكاسو؛ لذلك كان القادة الإدارية الفرنسية (فترة الاستعمار) ومسؤولو الحكومة في مالي (بعد الاستقلال) يقومون غالبا بزيارات ودّيّة له، وكثيرًا ما كان يمرّ عليه الآباء الكاثوليك والبروتستانت (المسيحيون) ليُلقوا عليه التّحيّة والسّلام. علاوة على ذلك، إنّه أدّى دورًا كبيرا في الوساطات لحلّ الخلافات، واستشار المربّين.

2.المحور الثاني:

2.1- دور تعليم إسحاق جالو و آثاره في سيكاسو

في فترة الستينيات والسبعينيات تطوّرت مدرستُه إلى مستوى كبير، فأثّرت في جميع الطبقات الاجتماعية في المدينة. ويوجد اليوم التلاميذُ المتخرّجون من مدرسته في مقدّمة السّاحة الدّينيّة وغيرها وبشكل دائم، حيث يعيشون حياتهم بطريقة سلميّة وهادئة، مشكّلين فئةً مثقّفة جديدة تتولّى الوعظ في المساجد، وفي وسائل الإعلام، وإرشاد حجّاج بيت الله الحرام. وتجدر الإشارة إلى أنّه لا يزال عددٌ من السكان يمارسون عاداتهم وتقاليدهم في خفية. وقد حارب الأستاذ إسحاق بعض التّجار الأغنياء، والموظفين الحكوميّين، والمزارعين، من أجل الرّجوع إلى السنة النبوية الشريفة، والاقتداء بالصحابة والسلف الصالح.

2.2- نضالُه في تأسيس المدرسة ضدّ النظام الاستعماري الفرنسي

لقد أدرك الأستاذ إسحاق جالو مبكّرا أهداف الإدارة الاستعمارية؛ إذْ إنّ الإرشادات التي حصل عليها من معلِّمه سيدي الخليل قد خلقت عنده إتقانا وتعاملًا مع اللغتين العربية والفرنسية في نفس الوقت، وكانت هذه الإرشادات تهدف إلى تمهيد مشروع تشكيل حركة نضال داخل المجتمع الإسلامي في سيكاسو ضد أيديولوجيات المستعمرين والمبشرّين الكاثوليك. ولهذا الغرض رأى فيه المستعمر الفرنسي شخصا متنبئا وعميق الفكر، وأنه مخرّبٌ لخططه الاستعمارية. وتشبه حاله في هذا الإطار ما أتى به الدكتور علي يعقوب في دراسة سابقة عن الشيخ محمود بن عمر باه مؤسّس المدارس العربية النّظامية في غرب إفريقيا: "...لما تخرّجت الدّفعة الأولى من مدرسة الفلاح في كاي، وكان عددهم خمسين تلميذا، وتمّ انتخاب تسعة عشر منهم للدراسة بالأزهر الشريف، تحت سرية تامة، خوفا من سلطات الاستعمار التي كانت تضايقه كثيرا بسبب نشاطاته الثقافيّة، ولما علمت سلطات الاستعمار بسفر الطلاب أشاعت مع المتحالفين معها من بعض الشيوخ التقليديين الذين يخافون على مناصبهم الاجتماعية، أشاعوا أنه نقل البعثة إلى القاهرة لا للتعليم، وإنّما قام ببيعهم بالشرق عبيدا، ولم يجد الشيخ بدا للدفاع عن نفسه..."."[10]

حارب الأستاذ إسحاق من خلال تعاليمه العربية الإسلامية بعض أساليب التعليم التي اتّبعها المستعمر الفرنسي. وكان تعليم الدين الإسلامي في نظر المستعمر عاملاً مضادّا للنظام الفرنسي، ولهذا السبب تمّ التحقيق من نظام تعليمه عدة مرات من قبل القائد الفرنسي، لكنّه بدهائه وتربيته الدينية وثقافته السيكاسوية وفهمه لفكرة الاستعمار، نفّذ أوامر وتعليمات القائد المستعمر بتغيير برنامج تدريسه دون خلق أي اضطراب.

[10]- د. علي يعقوب، المرجع السابق والصفحة نفسها

توفّي الشيخ إسحاق جالو في 3 يونيو 1989م في مدينة سيكاسو، تاركا وراءه مدينة تشهد تطوّرا كبيرا للتعليم العربي الإسلامي.

2.3- شهادات أفراد عايشوا المؤسّس

- شهادة المرحوم إبراهيم دمبيلي، صديق الطفولة لإسحاق جالو[11]

كان إسحاق جالو صديقًا لي منذ الطفولة، وكان رفيقًا مخلصًا، وصديقًا عادلاً وكريمًا للغاية. عشْنَا معًا طفولة مبهرة، وشبابًا ملتهبًا، وشيخوخة مسالمة. لقد تمكّنّا من تبنّي الإصلاح السني لدى الشباب الآخرين في مدينة سيكاسو. فقُمنا بخدمة النّشاطات التربوية والتدريبية في سبيل الإسلام بتمويلٍ من ثرواتنا الخاصّة. ذهبنا إلى مكّة وقبّلنا الكعبة. أرسلنا أطفالنا إلى المدرسة الإسلامية والمدرسة الفرنسية. وخلال شهر رمضان كنّا نحضر تفسير القرآن الذي يقوم به إسحاق جالو. ولكن في نهاية الثمانينات، وبسبب مرضه، نسي معاني بعض الآيات، والتفسير الكامل، فإذا به يومًا توقّف فجأة وهو في التفسير وبكى بشدة، وأخيراً أعطى التفسير إلى علي سانوغو المعروف بـ بَاعَلي –الله أكبر– وينهي إبراهيم شهادته وتصريحاته بهذه الكلمات: غادر إسحاق مع علمه ومعارفه وتركَنا في فراغ لا يطاق. ثم بكى هو بنفسه وأصدر أصواتا متقطّعة.

- شهادة سليمان تروري المعروف بمعلم صُولُو[12]

شهد سليمان أنّ الأستاذَ إسحاق جالو كان شخصًا غير عادي –حسب رأيه الخاص– حصل على شرف؛ لقدرته على معاكسة اتجاه ثقافة المدينة، من خلال تبنّي ثقافة قرآنية كريمة. إنّ مجلسه تفوّق على المجالس القرآنية الأخرى في سيكاسو من حيث استعمال أدوات التدريس الحديثة مثل السبورة، وريشة الحبر، والورقة، والدفتر، والقلم وغيرها. ولهذا حذّرته الإدارة الاستعمارية على تجديده للنظام المدرسي. ولمّا طلب مسلمو سيكاسو بناء مدرسة جديدة –وكان هدفهم الرئيسي تقديمَ دروسٍ باللّغة العربية بأساليب أكثر تفصيلاً وأكثر منهجية– تمّ تعيين الأستاذ إسحاق جالو رئيسًا للّجنة التي قامت بوضع التخطيط التنفيذي للمدرسة. كما تمّ تعيين ثلاثة أشخاص للتدريب على الإدارة والتعليم لهذه المدرسة، وهم: المرحوم علي سانغو المعروف ببَالِي، والمرحوم إسحاق دِيَامُوتِيِي، وأنا سليمان تروري. وبفضل هذه الإجراءات أعطت حكومة مالي الطابع الرسمي على تأسيس نظام المدرسة العربية الإسلامية في مدينة سيكاسو، وفي نفس الوقت أُسِّس نظامُ المدرسة الفرنسية العربية (Franco-arabe). اليوم أنا في التّقاعد، وإمامٌ في حومة كِيلِيتِيغِيلاَ (Kèlètiguila).

- شهادة صالح كوني[13]

[11]- جرت هذه المحادثة يوم 1996/02/20م مع المرحوم إبراهيم دمبيلي، صديق الطفولة لإسحاق جالو.

[12]- جرت هذه المحادثة يوم الاثنين 21 يونيو 2021م مع السيد سليمان تروري المعروف بمعلم صُولُو.

[13]- أُجريت هذه المقابلة يوم الاثنين 25 يونيو 2021م مع السيد صالح كوني وهو مدير مدرسة التربية الإسلامية في سيكاسو، وعضو في العديد من الجمعيات الإسلامية.

أنا من بين الذين عايشوا تحوّل مجلس الأستاذ إسحاق جالو القرآني إلى المدرسة العربية الإسلامية. كُنّا ندرس تحت نظام المجلس القرآني –كما تعلّم إسحاق نفسه عند الشيخ سيدي الخليل سيسي– ثم قام بتغيير هذا النظام، وأتى بنظام جديد يعتمد على إدراك تقنياتٍ في قراءة وحفظ القرآن الكريم، وكذلك في قراءة وكتابة حروف اللغة العربية. كنّا نقرأ ونحفظ القرآن الكريم، ونكتب الحروف العربية على لوح حديث، كما هو الحال في المدارس الفرنسية الكلاسيكية. لقد أدّى الأستاذ إسحاق جالو دورا رئيسيا في تدريب المعلمين على هذا النظام الجديد. فبِفضل تقنيات التدريس الخاصة بالأستاذ إسحاق، تمكّنتُ من الدراسة في مدرسة سبيل الفلاح في سيقو، وبها حصلتُ على المركز الأوّل في امتحانات جميع الفصول. كما تمكّنتُ من الحصول على الدرجة الأولى مع مرتبة الشرف في كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة في المملكة العربية السعودية. أتذكَّرُ أوْلئك الشّباب الذين قضوا أوقاتهم في مدرسة الأستاذ إسحاق جالو وقد نجحوا بنسبة 95% في دراستهم في البلدان العربية. ها أنا اليوم مديرٌ في مدرسة التربية الإسلامية، وإمام مسجدٍ، ومرشدٌ للحجاج، وعضوٌ في العديد من الجمعيات الإسلامية، وداعيةٌ إذاعي...، يرجع هذا الفضلُ كلُّه إلى التّعليم الأساسي الذي تلقّيتُه عند الأستاذ إسحاق جالو. الله يرحمه ويغفر له.

النتيجة والخاتمة

أحمد الله الذي بنعمه تتم الصالحات. ففي الختام، نُشير إلى أنَّ هذا البحث يهدف إلى معرفة تاريخ تأسيس المدرسة العربية الإسلامية ومؤسّسها في مدينة سيكاسو. وقد تناول فيه الباحث مراتب التأسيس، وشخصية المؤسس، وحياته العلمية، والاجتماعية، وموقف المستعمر الفرنسي تجاه مدرسته، واختتم بشهادات أفراد عايشوا المؤسّس. وقد أُجْرِيَ البحثُ وفقًا للمنهج الوصفي الاستكشافي. ويمكن الاستفادة من سلسلة شخصيات علميّة أخرى في مالي عامة وفي سيكاسو خاصة.

الملاحق: خريطة مالي

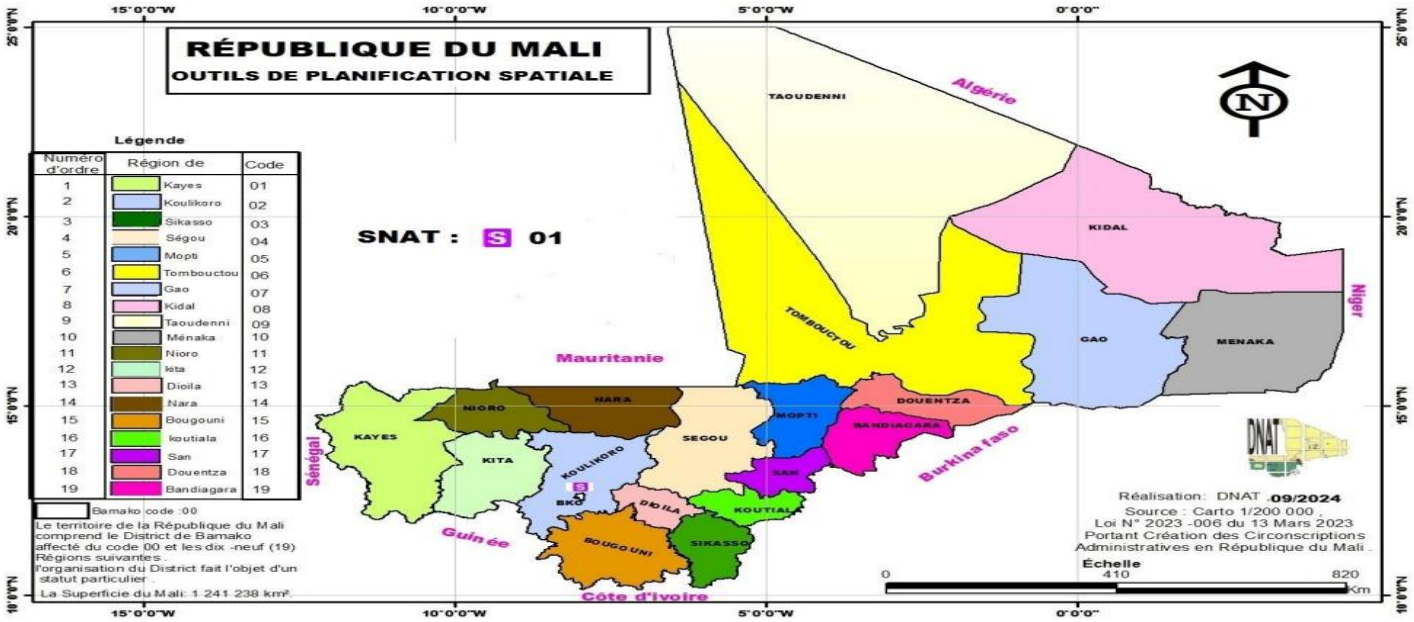

المصادروالمراجع:

- د. علي يعقوب، جهود العلماء الأفارقة في نشر الثقافة العربية والإسلامية (غرب إفريقيا نموذجا)، مجلة قراءات إسلامية، النيجر، العدد الثالث: 1429هـ 2008م
- **COLIN Roland**, 2004, *Kènèdougou au crépuscule de l'Afrique coloniale, mémoire des années cinquante suivi du Mémorial de Kélétigui Berté »,* Présence Africaine, Paris
- Kodjo Georges Niamkey, (2007) « Le royaume de Kong (Côte d'Ivoire), des origines à la fin du XIXe siècle », Outre-Mer, Revue histoire ...pps

المقابلات

- إبراهيم دمبيلي، المرحوم، كان صديق الطفولة لإسحاق جالو، أُجرِيتْ هذه المقابلة يوم 1996/02/20م.
- سليمان المَلْكُ تراوري، من أوائل التلاميذ الذين درسوا في الكتّاب، والمدرسة الأولى في فترة الاستعمار. توفي عام 2022م. أُجريت المقابلة معه في 27 يونيو 2020م.
- سليمان تروري المعروف بمعلم صُولُو، من تلاميذ إسحاق جالو، تمّت هذه المقابلة يوم الاثنين 21 يونيو 2021م.

- صالح كوني، وهو مدير مدرسة التربية الإسلامية في سيكاسو، وعضو في العديد من الجمعيات الإسلامية. أُجرِيت هذه المقابلة يوم الاثنين 25 يونيو 2021م.
- يوسف عباس سانوغو، من أوائل تلاميذ المدرسة الفرنسية العربية أُجرِيَت المقابلة معه في مكتبي في معهد زايد بمدينة بماكو 19 أغسطس 2021.